المحاضرة الثالثة: شروط العملية الإبداعية.

قائمة المراجع:

* حازم القرطاجني: منهاج البلغاء.
* عز الدين المناصرة: أوراق.
* ابن عبد ربه: العقد الفريد
* الجاحظ: البيان والتبيين
* عبد الله العشي: أسئلة الشعرية. بحث في آلية الإبداع الشعري.

**تمهيد:** الحديث عن شروط وظروف وملابسات العملية الإبداعية في المجال الأدبي، يشقّ على صاحبه، ثم على من يتولى التقعيد لهذه العملية. لكونها أولا تتعلق بحالة روحية يعيشها الشاعر في حالاته النفسية الكثيفة التي تتراكم فيها طبقات من المشاعر المختلفة، تفقد الشاعر القدرة على الوعي بها وعيا كاملا مفصلا. وهذا ما يجعل الشاعر عاجزا عن تقديم خريطة معاناته بوضوح حين يطلب منه ذلك.

ومن الأسباب التي تجعلنا لا نستطيع توصيف العملية الشعرية توصيفا علميا، هي أنها تجربة لا تدرك بل تعاش، وإذا كان الشخص الذي يعيشها لا يستطيع تقديمها لغيره واضحة، فإن غيره سيكون أعجز منه.

**عوائق التنظير لعملية الإبداع الشعري**: هناك مجموعة من الصعوبات التي تعترض الباحث وهو يحاول الكشف عن الكيفية التي تتشكل بها عملية الإبداع الشعري، وهو يحاول أن يرصد الملامح الأولى لهذه العملية، إلى أن تكتمل في صورتها النهائية. ومن جملة تلك العوائق ما يلي:

1. ذاتية التنظير: فالشاعر الذي ينظِّر لعملية الإبداع الشعري، غالبا ما يقدم تجربته الذاتية باعتبارها نظرية في الإبداع، فهو حين يتكلم نظريا إنما يبرّر خطه الشعري، حتى لو تظاهر بغير ذلك. فكيف يتعامل الناقد مع هذا الذاتي؟ كيف يترجمه إلى نظرية عامة وموضوعية؟ أين حدود الذات والموضوع؟
2. الاختلاف البين في تنظيرات الشعراء لتجاربهم في عملية الإبداع، كيف يمكن الجمع بين هذه الاختلافات التي تصل أحيانا حد التناقض؟ وكيف يتصرف الناقد وهو يحاول أن يؤلف من هذا الاختلاف كيانا متجانسا، أي نظرية؟
3. الضبابية: العملية الشعرية غامضة، لا يمكن الإمساك بخيوطها المتشابكة، وإذا حاول المبدع تفسيرها، أو توضيحها يجد نفسه عاجزا عن ذلك، أما الناقد فالأمر عنده أعقد، لأنه يتعامل مع نوع من الإبداع مخصوص. فما هي الشروط التي تتم فيها العملية الإبداعية الشعرية؟

إن وضع تخطيط منطقي يشرح بدقة كيفية حدوث العملية الإبداعية الشعرية أمر صعب للغاية، لأنها تختلف عن غيرها من التجارب الإبداعية. لكن هناك بعض الشروط التي ذكرها النقاد العرب القدامى، والتي سنشير إليها على النحو الآتي

1. الانفعال: تحدث القدامى من نقادنا عن الدافع للكتابة، وحددوه بالانفعال. وقد سئل الحطئية عن أشعر الشعراء فقال:" النابغة إذا رهب، ، وزهير إذا رغب، وجرير إذا غضب"

فالرغبة والرهبة والغضب هي دوافع وشروط العملية الإبداعية الشعرية.

كما نجد في إجابة الشاعر الأموي أرطأة بن سهية على سؤال عبد الملك بن مروان : هل تقول الآن شعرا؟ فقال: كيف أقول وأنا لا أشرب، ولا أطرب، ولا أغضب. وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه.

فقد ربط الشاعر عملية الإبداع الشعري بمجموعة من الحالات الوجدانية النفسية.

كما شرح حازم القرطاجني هذه الحالات في قوله:" يجب على من أراد التصرف في المعاني وحُسْن المذاهب في اجتلائها والحذق بتأليف بعضها إلى بعض أن يعرف أن للشعراء أغراضا أول هي الباعثة على قول الشعر. وهي أمور تحدث عنها تأثرات وانفعالات للنفوس لكون تلك الأمور مما يناسبها ويبسطها أو ينافرها ويقبضها أو لاجتماع القبض والبسط والمناسبة والمنافرة في الأمر من وجهين، فالأمر قد يبسط النفس ويؤنسها بالمسرة والرجاء، ويقبضها بالكآبة والخوف، وقد يبسطها بالاستغراب لما يقع فيه من اتفاق بديع، وقد يقبضها ويوحشها بصيرورة الأمر من مبدأ سار إلى مآل غير سار"

لكن النقد العربي القديم الذي اجتهد في الإحالة إلى دوافع العملية الإبداعية، نجده علق هذه العملية على عوامل خارجية. كما أن الدافع الأول قد يكون نسبيا، لأن ما يظنه المبدع دافعا أولا قد يكون مرتبطا بدافع أول غيره...وهكذا، فيبقى الوصول إلى الدافع الأول مستحيلا. يقول عز الدين المناصرة:" ...قد يقول الشاعر: رائحة الغابة الفلانية هي التي فجرت الهاجس الأول، ولكن هذه الرائحة قد تكون انعكاسا لأخرى في زمن بعيد نسيه الشاعر "

كما بحث المعاصرون شروط العملية الإبداعية، فتحدثوا عن شرط ( القلق ) ويشير محمود درويش إلى أن قصائده تبدأ دائما بقلق مدمر.

كما يقر أحمد عبد المعطي حجازي بأهمية الانفعال في العملية الإبداعية. يقول:" إن القصيدة لا يمكن أن تبدأ من فراغ، إذ لا بد أن يسبقها خاطر أو انفعال أو توتر مشحون بالإيقاع، أو فكرة تراودنا، صورة ما من صور المعنى ربما كانت بسيطة أو غامضة، لكنها محرضة، قادرة على التفتح والنمو أو واعدة بذلك"

ويقول يوسف الخال:" ينفعل الشاعر بتجربة ما فيدفع إلى كتابة القصيدة، فالانفعال هو المخاض الذي يسبق الولادة"

إذن الانفعال شرط أساسي من شروط العملية الإبداعية. وقد أشار إليه نقادنا القدامى، وكذا المعاصرون.